ذاكرة بلا ذكرى

حلمي صابر . ربيع الأول ١٤٤٤هـ



القصة لشاب فقد ذاكرته **(اللون الأحمر)** ، تحدث مع صاحبه **(اللون الأسود)** ، والشخص الثالث هو الطبيب **(اللون الأزرق)**. ورجل الجوازات في المطار **(اللون البنفسجي)** . لا فكرة في الألوان سوى تمييز الحوار وصاحبه . سأساعدك في قراءة الحوار بعينين مختلفتين. صاحبُ اللون الأحمر شخص فقد ذاكرته بسبب تعذيب السجون . لماذا سُجِن ؟ لأنه اعتقد أن خارج بيته جزءا من وطنه . وعليه سيقترح اقتراحا لهذا ، ويشير على ذاك ، وينصح ذاك ويعاتبه بأدبٍ ولطف ، كما يفعل في بيته بحريته أن يطفئ إضاءة ، ويفتح بابا ، ويفتح جهازا . أو يحاور ابنته وولده . هذا أمر طبيعي في كل مجتمع وبيت .

كان مخطئا ، عفوا كان فهمه هذا غير مقبول عند من حَبسَه . قال له : وطنك ، بيتك فقط افعل فيه ما تشاء ، لكن خارج البيت ليس وطنك. حتى في بيتك أنت مراقب ، وأنت ترى في بعض البلدان ، البعض يخاف من جواله ؛ خشية أن يتصنت عليه. طبعا في الصين الكاميرا في كل شارع. في كوريا الشمالية الأنموذج الأعلى للطغيان . وهذا عبثٌ وأيما عبث بالإنسان . المشكلة العيش ببعد واحد ، وهو البعد الاقتصادي ، والذي لوحده لا يعني الحياة الكريمة.

الطبيب النفسي ، المفترض فيه أن يعالج مريضنا، عنده نفس المرض. وقُصِد بذلك: أن المشكلة متفاقمة. إذا من يعالجك مصاب بمشكلتك، بل ومقالته التي لم تنتهي ، يحملها دائما معه ؛ لأنها قضية مستمرة. كانت الطفلة إليدا بعض علاجه. كان يحتاج إلى شخصٍ بقلب طفل . خارج البيت وداخله ، بل في الوطن كله. الطفل ببراءته وعفويته وصدقه ومشاعره التي تبدو على وجهه بلا تزييف وخداع ونفاق ومكاسب، ويتقبل خطأك .

الكلام كثير في معاني الحوار، عليك أن تفك بعض الرموز كقطع أصابعه وحرقها لئلا يكتب أو يتكلم. الرمز في الكتابة قد يكشف مرحلة تاريخية وهي : الكتابة بالرمز في زمن الخوف. والحوارات بعضها في هذا. أظنُ هذا يكفي للتوضيح. وإلا الكلام كثير ، والمعاني كثيرة. والرسمة ، تختصر كل هذا : بضياع المعالم والهوية. طبعا ليس ثمة صواب أو خطأ . هذا خيال . والفن بلا خيال ، ليس فنا. فلا تتقيدْ بما ذكرت ، عشْ خيالك.

سنبدأ الآن :

- قصة لشاب فقد ذاكرته
- كتبَ إليَّ يخبرني قصته :
- هل دمك مثل دمي
- أم دمك باروداً !
- كلما جرى ، فرْقعَ ، وأدمى ، وفتقَ جرحي
- عجبٌ لم ينقض معه عجبي
- غريبٌ في وطني
- تائه في بيتي
- فقدتُ ذاكرتي
- أين غرفتي ؟ أين وجهتي ؟
- أين أنا !
- كيف أخذوا جواز سفري
- كيف أضاعَ ورقي
- ما هويتي ؟!
- سألني رجل الجوازات : من أنتَ ؟
- قلتُ : لا ادري
- سؤال آخر: كيف جئتَ ؟ لجوابي : لستُ ادري
- قال : ليس شيء هنا مكتوب
- قلتُ : كذا كرتي
- سألني : أأنت ضائع ؟
- أجبته سائلا : رُبما ، هل تعرفُ من ضيعني ؟
- حجزني قليلا ، لا استطيعُ أن أدخلكَ ، ذهبَ إلى مكتبه ، ثم رجعَ وقال : سنرجعك
- سألته مشفقا : إلى أين سترجعني ؟! أنا تائه غريب ، أتعرفُ من توهني ؟
- عاتبته: هل ترى الحيرةَ في عينيَّ ؟ هل ترى في وجهي ، وجهي ؟
- عيني لا تبصرُ دربي ، كان الطريق مستقيما ، وأرادَ أن يعوجني
- ومسحوا معالمَ وجهي ، ورموا إرثي
- سألني مرة أخرى : من أين جئتَ ؟
- أجبته لجوابي : لست ادري
- هل أنت عربي أم أوروبي ؟

- أوروبي : لا .. لا لست أوروبيا ، الأوروبي استعمرني
- والعربي أيضا استعمرني ، لكنه اختلف عنه ، أرادَ أن يستعبدني
- وأنا حر طائر ؛ لا أبيع بنفسي ولا بها اشتري
- معذرة سنأخذك إلى التوقيف ، أضافَ رجل الجوازات قائلا : أمركَ حيرنا وحيرني
- قلتُ : إليه خذني
- واصل صاحبي التائهُ حديثه . كان شعره أسودا ، عيناه خضراء بأصفر بني ، سحنته من كل لون ، يتكلم خمسَ لغات ، وهذا مما أفقدَه بلدَه ؛ لأنه لم يعدْ يدري ما لسانه الأصلي
- قال: وضعوني في السجن
- سألته : أيةُ سجنٍ ؟
- حاولَ أن يتذكر ، عصفتُ ذاكرتَه
- قال : للأسف ذاكرتي لا تسعفني
- قلت : لا بأسَ لا يهمني أيةُ سجنٍ ؛ كلهم سواء. ماذا حدثَ بعد ذلك ، أخبرني
- مسحوا عقلي ، مسحوا ذاكرتي ، ماذا بقي في دماغي ؟ ، وفجأة قال : تذكرتُ
- تذكرتُ السجّان شمس بدرانَ في مصر الذي شوى جلدي .
- لا تعجبْ من عجبي ! شمسٌ وبدران كيف يطفئني ! . ظلام في ظلام ، ظلمني!
- وتذكرت تشيني الذي بالبناية فجرني
- وتذكرت هاشم الذي بالأقبية أنزلني
- وإذا جاءتْ حقوقُ الإنسان أخرجني ، وإذا رحلوا ، أرجعني
- وتذكرتُ نضالَ في الضفة الذي أطفأ سيجارته في جلدي
- وتذكرت بشارَّ الذي جعل حارسنا فارسيا ، أظن اسمه القمي ، كان في العاشوراء يلطمني
- وتذكرت الخليجَ العربي الذي أغرقني
- وتذكرت المغربَ العربي الذي أغربني
- قلتُ : لم تبقِ أحدا ، أنتَ بحاجةٍ إلى طبيبٍ نفسي
- سألني الطبيب الذي لكبر سنه ، مشى متكئًا بعصاةٍ ، كنتُ أحتاجها لتسندني
- سألني : ما بكَ يا ولدي ؟
- لم أتكلمْ، رسمتُ على الورق خريطةً
- ما هذهِ ؟
- أجبته لا ادري
- لكنها في دماغي تعصفني ، أحاول أن أكلها ، فتهربُ عني

- سألته: أليست هذه خريطة العالم العربي ؟
- قال الطبيب : بلا
- قلتُ لا ادري ، أليس هذا المكان الذي يبيعُ فينا ويشتري !
- قدَّمَنا قربانا لعرشهِ : غيَّر ديننا وترابنا ، وأراد أن يمسحَ وجهي
- هذا الذي بقي من ذاكرتي !
- هل ينسى التاريخ ، تاريخه الذي فيه دمرَّني
- ومن هويتي وجذوري قطعني وجرَّدني
- تنحنحَ كما يفعل رجال المخابرات عند التشفيرِ لبعضهم وسألني : هل سقطتَ من بناية ؟ هل كنت في طائرة ؟
- قلت : لا أظنُ فليس في جسمي جرح ، لكنَّ الجرحَ في صدري وقلبي
- قال الطبيبُ : سيأخذ علاجك وقتا طويلا ، أنت مصدوم يا ولدي ، أخشى بأنَّ مشكلتك أكبرُ من خبرتي ومعالجتي
- قلت : ماذا أفعل ؟
- قال لي : ارسم واكتب ولعلنا نجد الإجابة في الحرفِ واللونِ
- سألتُ الطبيب: هل ترسم قال لا . بسرعة لم اترك في الوقتِ فراغا سألتهُ : وهل تكتب ؟
- أخرج ورقة من جيبه ، هذه مقالة لم أكملها من سنين ولا زلت أحملها في جيبي
- بحرص وعيناي اتسعت وسألته : ما عنوانها ؟
- أجاب الطبيب ، وعيناه في عيني ، ونزلت دمعةٌ
- تألمتُ ، وبصوتٍ متأثرٍ خافتٍ هادئٍ : كررتُ سؤالي : ما عنوانها ؟
- قال الطبيب بحسرة : أين وطني ؟!
- قلتُ للطبيب : كأن ذاكرتي رجعتْ ، وكأنَّ مرضكَ مرضي
- نمتُ تلك الليلة هانئا ، لست لوحدي ؛ هناكَ مصابٌ آخر بمرضي
- أصبحتُ مشرقَ النفس ، جلستُ في الحديقة ، ومعي كوب شاهٍ وقهوتي
- سمعت العصفور وسألته : هل ناديتني ؟ سألني طائرُ المينا : هل تعجبكَ مشيتي ؟
- شممتُ الزهرة ، وناديتُ النحلة ، ونظرتُ في السماء وأنا أدور مع الأرض وكل كوكبي
- ما أجمل الكون بلا ذاكرتي ، يا قمرُ : أينَ قمري ؟
- راقبني الطبيب خلف النافذة ، ورآني فارًا مهرولا حينما أدخلوا شخصا مُرَّبطا بالسلاسل
- هربتُ إلى غرفتي
- وفي زاويتها تكورتُ مرتجفا وضممتُ ساقاي بيدي

- جاء الطبيب مسرعا ، ما بك يا ولدي ؟
- تضايقتُ من رؤية السلاسل !
- هل كنت مسجونا سألني ؟ أجبته : لا ادري .
- ما الذي ألَمَّ بي : صداع في رأسي ، ضجيج في رأسي ، صراخ ، دماء على الجدرِ ، ضربٌ ، شنقٌ ، صعقٌ ، تفلٌ ، ركلٌ ، بصقٌ ، دعسٌ ، سحلٌ ، التصق ثوبي بجلدي. وضعتُ يديَّ على رأسي
- أخذني بلطفٍ صامتا محتارا ، وعلى السرير وضعني ، غطاني بالغطاء : نَمْ يا ولدي .
- نمتُ ، قمتُ مرعوبا ، كأنَّ الطبيبَ ينتظرني وسألني : هل تذكرتُ شيئا
- أخبرته بما أرعبني
- هل أنت عميل ؟
- بكيت بصوتٍ عالٍ سمعه ُكل شخصٍ في المصحة
- بكائي صار صدىً في كل غرفةٍ
- بكيتُ وبكيتُ وبكيتُ
- نحيبا ، نشيجا ، غطيتُ وجهي بيدي
- قلتُ للطبيب : هذه كانت تهمتي ،
- قال الطبيب : إذن أنت خائنٌ !
- كيف أخونُ وطني وترابي وأرضي ؟! كأنني أهدمُ عليَّ بيتي
- كلا ... لا ... أنا مواطن بلا وطنٍ . وطني فقط في البيتِ . والشارع وطنهم ليس وطني . قلت لهم : هذا وطننا جميعا ، لا تعبثوا به . في تلك الليلة ، أخذوني بعشر سيارات، كان صوت صفيرها في الحي يدوي . تساءلَ الناسُ : ما الذي يجري ؟. قالوا : صحوة وإرهاب .
- أجابَ الناسُ : هذا يكفي . ما علموا مشكلتي : أن خارج البيت لم يكن وطني !.
- قال الطبيب : مشاعرك محروقة
- وحواسك مقطوعة
- وذاكرتك مفقودة
- وهويتك مسروقة
- وعواطفك منثورة
- وذاتك مخطوفة
- قلت للطبيب : هذا أنت أم أنا ، هل هذه الكلمات في مقالتك مكتوبة ؟!
- ترك الطبيبُ الغرفة ، تساءلتُ مجيبا : كأنني أوجعته
- لم أنمْ تلك الليلة ، أفكرُ في الطبيب : من منا المريض ! هل هو الذي يعالجني أم أنا الذي أعالجه

- أظنُ يا صاحبي : كأنه رأى مرضه في مرضي ، وربما لهذا تعاطفَ معي لأن يعالجني
- قلت لصاحبي : من حديثك ، هكذا يبدو
- مضت الأيام وذاكرتي بلا ذاكرة ، ذاكرة ضائعة
- جاء الطبيب يوما بطفلة جميلة
- قابلتُ طبيبك وأخبرني بالقصة ، وقال لي :
- لاحظت غرابته مع طفلتي الصغيرة إيلدا التي تعني بالفرنسية الحكمة
- سألني صاحبي هل كنا في فرنسا ؟
- لم أجبه ، معذرة ليس عندي الصلاحيات لأخبرك
- واصل الطبيب حديثه : أخذتهما معا إلى عيادتي، مريضي وصغيرتي
- فاقتربَ منها ، وتحسَّسَ جيوبه وقال لها : ليس في جيوبي حلوى : آسف يا سيدتي
- لم تفهم لغته ؟ أظنه تكلم بالصينيةِ
- قلتُ له : ابنتي عربية وتتكلم الفرنسية
- فمزج العربية بالفرنسية
- شعرتُ بأنه طفلا ، بل كان طفلا ، حتى ظننتُ أنَّ ابنتي في عمر السابعة أكبرَ منه
- أتدري ماذا قال ؟
- رفعتُ عيني متعجبا
- قال لها : أرجوكِ ضميني
- وفعلا صغيرتي أحبته ، فضمته ، كما تعرف ، فوجهه وجه طفل
- فبكى ، وبكت ابنتي ، وبكيتُ
- انحدرت دموعهم ودمعتي
- قال لي الطبيب : نظرَ فيك مليا
- وسألك : ما قصتك ؟
- اسمي صابر حلمي
- هل أنت متأكد : أم حلمي صابر ؟
- لا ادري ، لا أريدُ رجوع ذاكرتي ، لهذه الطفلة ذكرى في ذاكرتي
- أخذت إليدا يده اليمنى بحنان ، ولم تنتبه
- سحب يده منها بسرعة ؛ كانت ثلاثة من أصابعه مقطوعة
- وأصابعه الأخرى مشوهة محروقة
- سألته إليدا ببراءة : لمَ أصابعك تختلف عن أصابعنا ؟

- نظر إليَّ ،ثم نظر إليها وقال هذه المشكلة يا صغيرتي : أنني لا ادري
- سألته : متى ستدري ؟
- خرج من عيادتي بصمت، وذهب إلى غرفته ، واستلقى ليسترخي . وأخذوه من غدٍ ولم نلتقي.
- بعد حينٍ ، عرفتُ من أنا : كنت محبوسا في بلد عربي بعدما كنت محبوسا في بلد أوروبي ، أرسلوني ليتخلصوا مني بسبب فضح أكذوبة حقوق الإنسان. فكل بلدٍ ، كبلد عربي.
- هل زرتَ حديقة الحيوان ؟ الإنسانُ مقفوصٌ كالحيوان، كل الأرض بلا استثناء في الصين في أمريكا في كينيا وفي اليابان ؛ لأننا نعيش في شريعة الطاغية الإنسان .
- لا استطيع إخبارك يا إليدا لماذا تختلف أصابعي: قطعوا أصابعي الثلاثة اليمنى!. وغمسوا يدي الأخرى بالحارِّ من الزيت ، كأنني كنتُ على مقلى . ليتني كنتُ بلا ذكرى .
- عرفت لاحقا أن قضبان الحديد صارت حدودي ، والغرفةُ صارت وطني. وخارج الغرفة ليس وطني ، كخارج بيتي ليس وطني .
- صار مدير السجن رئيس الجمهورية ، وصيرت الأقفاص الأخرى بلدانا أخرى ، كواقعنا .
- أخفيتُ أوراقي خلفَ جدرانِ الغرفة .
- لعلَّ أحدًا يوما يقرأها ؛ ويتذكرُ ما أحاول أن أنسى .

انتہی